

في أعقاب الموقعة

بدأت موقعة بدر في صبح اليوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة (١٣ مارس سنة ٦٢٤م)، وانتهت في عصر ذلك اليوم، فلما انتهت الموقعة أمر رسول الله ﷺ أن يدفن الشهداء من المؤمنين، وأن يوارى القتلى من المشركين في قليب^(١) هناك مهجور. فلما وضعوا في القليب وقف عليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». (قالت عائشة): فقال له أصحابه: «يا رسول الله، أتكلم قومًا موت؟» فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق». وبعث رسول الله ﷺ بشيرين إلى المدينة، يبشران بما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين؛ فأرسل عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

(١) القليب: البئر التي لا ماء فيها.

موقف عتاب

وكانت الغنائم التي غنمها المسلمون كثيرة، وكان فيها إبل ومتاع وأنطاع وسلاح وثياب وأدم كثير حملوه للتجارة؛ فادعى من قاتل العدو وصده أنهم أحق بها، وادعى من جمعها أنهم أحق بها، وادعى من كان يحرم رسول الله ﷺ أن غيرهم ليس أحق بها منهم. فاختصموا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأمر الناس أن يردوا كل ما في أيديهم من الغنائم، حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه.

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: «خرجنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فشهدنا بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله العدو؛ فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبّت طائفة على المغنم يجوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة؛ حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعضهم، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق منا، نحن نفينا منها العدو وهزمتناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله، صلى الله عليه وسلم: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به.. فانزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الأنفال قُل : الأنفالُ لله والرَّسول فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ
بَيْنِكُمْ وأطيعوا الله ورسولَهُ إن كنتم مؤمنين ﴿١﴾ ، ققسمها رسول
الله ﷺ بين المسلمين .

ويعلل بعض المفسرين اختلاف المسلمين في الغنائم ، بأن
هناك عاملين قويين كان لهما أكبر الأثر في ذلك الموقف العجيب
الذى لم يكن ينتظر قط لا من المهاجرين الذين شهد الله لهم
بأنهم المؤمنون الصادقون ، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿٢﴾ ، ولا
من الأنصار الذين شهد الله لهم بأنهم المؤمنون الصادقون ،
الذين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً
مِمَّا أوتُوا وَيؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿٣﴾ . . أما
أحدهما فعامل معنوي ، كل منهم يحرص عليه وهم في أول
موقعة ؛ ذلك أن نصيب المقاتل من الغنيمة يقاس به بلاؤه في
الموقعة . . . وأما الثاني فعامل طبيعي ، هو غلبة منطق البيشة
العربية ، من لذة الحصول على المال من طريق الغزو والقتال .
(أقول) : وربما كان هناك عامل ثالث له ما لهدين العاملين
من أثر ، هو شدة ما كان المسلمون فيه إذ ذاك من الفقر

(١) سورة الأنفال الآية ١ .

(٢) سورة الحشر الآية ٨ .

(٣) سورة الحشر الآية ٩ .

والحاجة، فقد رُوي أن رسول الله ﷺ نظر إلى أصحابه حين خرجوا إلى بدر، فأثر في نفسه منظرهم، فدعا الله لهم فقال: «اللهم إنهم حُفَاة فاحملهم، وُعْرَاة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم من فضلك!».^(١)

ومهما يكن من شيء فقد كان موقفًا عاتبهم الله فيه، ودرسًا تعلموا منه ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون الصادقون، من العزوف عن أعراض الدنيا، ومن التطلع إلى ما هو أسمى وأجل من متاعها الفاني: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَعَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^(١).

تقسيم الغنائم

وبات رسول الله ﷺ ليلته تلك بوادي بدر، ثم أصبح مرتحلاً بأصحابه إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، والنفل الذي أصابه المسلمون منهم، حتى إذا كان ببعض الطريق نزل، فقسم النفل على أصحابه بالسواء، وجعل للفارس نصيباً وللفارسي نصيباً، وجعل للورثة حصة من استشهد من المسلمين.

(١) سورة الأنفال الآيات ٢ - ٤.

وكان فريق من المؤمنين لم يحضروا الموقعة، لأن رسول الله كلفهم أعمالاً غير أعمال القتال، وفريق آخر حجزه عذر قاهر كان رسول الله ﷺ يعلمه.. فأسهم لهم رسول الله مع المقاتلين، فكانوا كمن حضر القتال.

ويقول الرواة: إن بعض الصحابة عجبوا لهذا القسَم الذي سوى بين القوى والضعيف، فسألوا عنه رسول الله ﷺ مستفسرين. قال سعد بن أبي وقاص: "قلت: يا رسول الله، أعطى فارس القوم الذي يغيظهم مثل ما تعطى الضعيف؟" فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نَكَلْتِكَ أُمُّكَ! وهل تُنصرون إلا بضعفائكم؟» وكأنما أراد صلى الله عليه وسلم أن يلفت النظر إلى أن الأمر ليس أمر قوة وحسب؛ إنما هو قبل ذلك تضامن وتعاون واجتماعُ كلمة واتتلاف قلوب.

* * *

ثم ارتحل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه وعلى المسلمين، وجعلوا يعتذرون له عما كان من تأخرهم عن الخروج معه؛ فقال له أسيد بن الحضير: "يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك! والله يا رسول الله ما كان تخلفني عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها غير؛ ولو ظننت

أنها عدو ما تخلفت". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم :
« صدقت ».

ومن اللطائف التي رويت في هذا الموقف، أن المسلمين لما
أقبلوا على رسول الله يهتفون، قال لهم سلمة بن سلامة :
" ما الذي تهتفوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجايزَ صلُعا كالْبُذُنِ
المعقَّلة، فحزناها " .. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم،
ثم قال : « أى ابنِ أخى، أولئك المَلَأُ !! أى هم الأشراف
والسادة، الذين لا يستهان ببلاتهم في القتال، ولا بمكانهم في
القوم.

النبي يأمر بقتل اثنين من الأسرى

ثم أخذ رسول الله ﷺ في السير إلى المدينة. فلما بلغ
« الأثيل » استعرض الأسرى هناك، فأمر باثنين منهم أن يقتلا :
هما النَّضْرُ بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيْط. وكان كلاهما
شيطاناً من شياطين قريش، ومن أشد المشركين إيذاء للنبي
وصحبه، وأفظعهم تقوُّلاً على كتاب الله وعلى رسول الله.

أما أولهما، وهو النضر بن الحارث، فقد نظر إليه رسول الله
ﷺ وهو يستعرض الأسرى عند الأثيل - نظرة هَلَع لها فؤاده؛
فقال لرجل إلى جنبه : "محمد - والله - قتلى؛ فقد نظر إلى

بعينين فيها الموت“!.. فقال له صاحبه: ”ما هذا - والله - منك إلا رعب“؛ وجعل النضر يتلمس من يشفع له عند رسول الله كى لا يقتله؛ فذهب إلى مصعب بن عمير، وكان أقرب المسلمين إليه رحماً، فقال له: ”كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من قريش، فهو - والله - قاتلى إن لم تفعل“. فقال له مصعب: ”إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه“. فقال النضر: ”لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حى“. قال مصعب: ”والله إنى لا أراك صادقاً. ثم إنى لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود“.. وكان النضر أسير المقداد بن عمرو؛ فلما سمع الحديث يدور حول قتله صاح قائلاً: ”النضر أسيرى“! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اضرب عنقه.. واللهم أغنى المقداد من فضلك!»! فقتل ضرباً بالسيف.

وأما الآخر، وهو عقبة بن أبى معيط، فقد أمر النبي بقتله وهم «بترق الظبية»، فصاح عقبة جزعاً: ”لئن للصبيبة يا محمد“؟ قال: «النار»! وروى عن الشعبي أنه لما أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بقتل عقبة قال: ”أتقتلنى يا محمد من بين قريش“؟ قال: «نعم! أتلدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها

حتى ظننت أن عيني ستندران^(١).. وجاء مرة أخرى بسلاً شاة
فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فساطمة فغسلته عن
رأسي.. ثم أمر بقتله فقتل.

ثم مضى رسول الله ﷺ في طريقه إلى المدينة، فدخلها قبل
الأسارى بيوم، وكان دخوله من ثنية الوداع، في يوم الأربعاء
الثاني والعشرين من رمضان، فتلقاه الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وتلقاه الناس يهتفون بفتح الله؛ "فقدم صلى الله عليه وسلم
المدينة مؤيدًا مظفرًا منصورًا، قد أعلى الله كلمته، ومكن له
وأعزه ونصره"^(٢).

الرسول يشاور أصحابه في الأسرى

فلما أقبل الأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا
بالأسارى خيرًا». فكان المسلمون يكرمونهم، حتى إنهم ليؤثرونهم.

(١) ستندران: ستخرجان.

(٢) السيرة النبوية، لدحلان.

على أنفسهم بطيبات الطعام.. يقول أبو عزيز بن عمير فيما رواه ابن إسحاق: "كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَموا غداهم وعشاءهم خصونوا بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا؛ ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. (قال): فاستحى فأردها على أحدهم، فيردها على ما يمسه".

ثم استشار رسول الله ﷺ كبار أصحابه في الأسارى؛ فأشار بعضهم بأن يقتلوا أو يحرقوا، لأنهم رهوس الكفر وأئمة الضلالة، ولما أسلفوا من الإساءة إلى المسلمين؛ وأشار بعضهم بأن تقبل منهم الفدية، ليكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، ولعل الله أن يُقَبِّلَ بقلوبهم فيتوبوا. فأثر رسول الله الفداء، لما كان عليه أصحابه من رقة الحال وشدة الفقر حينذاك.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: «لما كان يوم بدر قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: "يا رسول الله، قومك وأهلك! استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم". وقال عمر: "يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك!! قربهم فاضرب أعناقهم"» وقال عبد الله بن رواحة: "يا رسول الله، أنظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارًا".

(قال): فدخل رسول الله ولم يردّ عليهم شيئاً. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: «إن الله ليُليّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة.. وأنتم عالة، فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق».

افتداء الأسرى

ولقد عاتب الله رسوله ﷺ على أن قبل الفداء وآثره على الإثخان في قتل العدو، فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١)!

ويقول الرواة: إن رسول الله ﷺ بكى، وبكى معه أبو بكر، حين نزلت هذه الآية، وتمنى لو أنه أخذ برأى عمر في قتل الأسارى.

على أن الله قد تجاوز لرسوله عن هذه الهفوة، وأحل له

(١) سورة الأنفال آيتا ٦٧، ٦٨.

وللمسلمين ما أخذوا من الغنيمة، فقال سبحانه: ﴿فكفوا عما
غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وقد مَنَّ النبي ﷺ على فقراء الأسرى فأطلقهم بغير فداء،
وجعل فداء بعضهم ممن يعرفون الكتابة أن يعلم عشرة من
سبيان المسلمين الكتابة، أما أغنياؤهم فقد أبقاهم حتى يفتديهم
أهلهم. وكان فداء الواحد يتراوح بين ألف درهم وأربعة آلاف
درهم، بحسب حاله من الضيق والسعة.

وكان ممن مَنَّ عليه رسول الله ﷺ أبو عزة - عمر بن
عبد الله الجُمَحِيّ؛ كان محتاجاً ذا بنات، فكلم رسول الله فقال:
"يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة
وذو عيال؛ فامُنْ عليّ". فمَنَّ عليه رسول الله، صلى الله عليه
وسلم، وأخذ عليه العهد ألا يظهر عليه أحدًا.

فداء أبي العاص

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع، خَتَنُ^(٢) رسول
الله، صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب. قال ابن

(١) سورة الأنفال الآية ٦٩.

(٢) ختنته: صهره.

إسحاق: «وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة.. فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها. فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّةً شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها، فافعلوا! فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليه الذي لها. وأخذ النبي على أبي العاص أن يخلى سبيل زينب، فوعده ذلك».

فداء العباس

وكان في الأسارى كذلك العباس عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فطمع أن يمن عليه رسول الله فيطلقه بلا فداء؛ فأبى رسول الله إلا أن يدفع فديته، وفدية نفر من أهله ومن حلفائه كانوا معه. روى الزهري عن جماعة سماهم قال: «بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا؛ وقال العباس: "يا رسول الله، قد كنت مسلماً". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرُك

فقد كان علينا. فافتد نفسك وابني أخيك : نُوْفَلُ بن الحارث ابن عبد المطلب، وعُقَيْل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليْفَك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر». قال : "مأذك عندى يا رسول الله". قال : « فأين المال الذى دفتته أنت وأم الفضل؟ قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفتته لَبْنَى : الفضل وعبد الله وقم ». قال : " والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله ! إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل؛ فاحسب لى يا رسول الله ما أصبم منى : عشرين أوقية من مال كان معى". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « لا... ذلك شيء أعطانا الله تعالى منك ». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه».

صورة من المعركة كانت من عوامل النصر والهزيمة

أما بعد، فقد انتصر المسلمون فى بدر على قلة عددهم وضعف أهبتهم، وكثرة عدوهم وقوة استعداده؛ فما أسباب هذا النصر يا ترى مع ذلك التفاوت البين بين الفئتين؟ وما السر فى أن هذه القلة العزلاء تغلب تلك الكثرة المستعدة، غَلَبًا يكون موضع العجب من الغالبين والمغلوبين جميعًا، وينقلب به ميزان التقدير إلى عكس ما تعود الناس أن يقدرُوا، وتنعكس فيه

النتيجة إلى غير ما ألف الناس أن تكون.

ليس من شك في أن الله أمد المؤمنين بمدد من قوته، وأيدهم بروح منه، وأنزل جنودًا لم يَرَوْهَا، وكتب لهم النصر جزاء ما صبروا وصدقوا، وما تحملوا من آلام وتضحيات في سبيل عقيدتهم؛ ولكن هناك أسبابًا أخرى، يستطيع المتأمل أن يدركها حين يستعرض صورة الموقعة من مبدئها إلى منتهاها، وأن يستشف ما وراء المواقف والحوادث من معان وإشارات. ولكي نعرض الصورة كاملة لهذه الموقعة، يحسن بنا أن نضم إلى ما مضى بعض صور أخرى عما تناثر على هوامشها، من بعض الحوادث التي قد تكون صغيرة في ظواهرها، ولكنها كبيرة في مغازيها..

تساؤم

١ - روى ابن إسحاق وغيره أن عاتكة بنت عبد المطلب، رأت في منامها قبل أن تخرج قريش بثلاث ليال، أن راكبًا أقبل على بعير حتى وقف على قريش، ثم صرخ بأعلى صوته: "يا آل عَدْر، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث!" وظل يكررها هنا وهناك والناس يجتمعون عليه، ثم أخذ صخرة فرمى بها من أعلى الجبل، فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفله تناثرت أجزاءها في

كل ناحية، فما بقي بيت ولا دار في مكة إلا دخلته منها فُلقة..
وبعد ثلاث من هذه الرؤيا، جاء رسول أبي سفيان يصيح
بالقوم، ويستفزهم لينقذوا غيرهم وأموالهم.

تساؤم

٢ - ورووا كذلك أن جُهيم بن الصلت رأى - وهم في
طريقهم إلى بدر - كان راكباً أقبل على فرس ومعه بعير حتى
وقف على رأسه، فقال: قُتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان
- لرجال سماهم من أشراف قريش - ثم ضرب بخنجره في لبة
بعيره وأرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبيتهم إلا أصابه
من دمه.

تساؤم

٣ - وروى الواقدي أن ضَمَضَم بن عمرو جاء إلى الحارث
ابن عامر فقال له: إني رأيت رؤيا كرهتها.. رأيت وأنا
كاليقظان على راحلتي، كان واديكم يسيل دماً. فقال الحارث:
ما خرج أحد وجهاً من الخروج أكره له من وجهي هذا! قال
ضَمَضَم: إني لأرى أن تجلس. فقال الحارث: لو سمعت هذا

منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة، فاطو هذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كل من عوقها عن السير.

تساؤم

٤ - وروى الواقدي أيضًا: أن نفرًا من زعماء قريش استقسموا بالأزلام قبل خروجهم إلى بدر، فجعل القنح الناهي عن الخروج يخرج لهم، حتى إن زَمْعَةَ بن الأسود غضب على القداح فكسرها وهو يقول: «ما رأيت كالיום قداحًا أكذب من هذه!!» (قال): وكرهت قريش وأهل الرأي منهم السير، ومشى بعضهم إلى بعض. وكان من أبطنهم عن ذلك الحارث بن عامر، وأمّية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام، وأبو البختري، وعلى بن أمية بن خلف، والعاصي بن منه.. حتى نكّتهم^(١) أبو جهل بالجبن، وأعاناه عقبة بن أبي معيط؛ فأجمعوا السير.

تفاؤل

٥ - وروى غير واحد أن رسول الله ﷺ لما عد أصحابه يوم بدر، وجدهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً؛ ففرح بذلك وقال:

(١) نكّتهم: وصفهم.

«عِدَّةُ أصحابِ طالوتَ الذينَ جازوا معه النهرَ» ! وروى كذلك أن المسلمين تفاءلوا بالمكان الذي عدّهم فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

إيمان بالحق

٦ - وروى الواقدي أن حُبيّب بن يساف كان رجلاً شجاعاً، وكان يأبى الإسلام؛ فلما خرج رسول الله إلى بدر، خرج هو وقيس بن محرث، فعرضاً على رسول الله ﷺ أن يخرجوا معه، فقال: «لا يخرج معنا رجل ليس على ديننا». فقال حبيب: «قد علم قومي أني عظيم الغناء في الحرب، فأقاتل معك للغنيمة». قال: «لا، ولكن أسلم ثم قاتل».

غرور

٧ - وروى كذلك أن أيماء بن رخصة بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببت أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. فأرسلوا إليه: «أن وصلتك رجم؛ فلئن كنا إنما نقاتل الناس لما بنا ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله طاقة».

عدالة

٨ - وروى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدل صفوفه يوم بدر، وفي يده قِطْع يعدل به القوم، ثم بسواد بن عُزَيَّة وهو مستتَل^(١) من الصف، فظعن في بطنه بالقِطْع، وقال: «استَوِ ياسواد». فقال: «يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل! فأقذني^(٢)»، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استَقِد». (قال): فاعتقه سواد فقيل بطنه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: «يا رسول الله، حَضِر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمِس جِلدى جلدك!» فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

إكراه

٩ - وروى ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «إني عرفت رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كُرْها لا حاجة لهم بقتالنا؛ فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم

(١) مستتل: بارز.

(٢) فأقذني: أي مكنتني من نفسك لأفعل بك مثل ما فعلت بي، من القود وهو

القصاص.

فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله».

قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري، لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بنى هاشم وبني المطلب.. (قال): فلقية المجذُر بن زياد فقال له: «إن رسول الله قد نهانا عن قتلك» - ومع أبي البختري زميل له قد خرج معه من مكة - قال: «وزميلي»؟ قال له المجذُر: «لا والله. ما نحن بتاركى زميلك! ما أمرنا رسول إلا بك وحدك». فقال: «لا والله؛ إذن لأموتن أنا وهو جميعاً! لا نتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلي حرصاً على الحياة» فاقْتلَا، فقتله المجذُر ابن زياد.

قال ابن إسحاق: ثم إن المجذُر أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يَسْتَأْسِرَ فأتيتك به، فأبى إلا أن يقاتلنى؛ فقاتلته فقتلته».

مواساة كريمة

١٠ - وروى ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتلى

قريش أن يُلقوا في القليب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب، نظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كتيب قد تغير لونه. فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك في شأن أيبك شيء؟» فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه؛ ولكني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنتني ذلك». .. فدعا له رسول الله بخير، وقال له خيرًا.

فناء في الحق

١١ - وروى كذلك: أن أبا عزيز - أخا مصعب بن عمير - قال: مر أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرف، فقال له: «شُدَّ يدك به فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك!» فقال أبو عزيز: «يا أخى، أهذه وصاتك بي؟» فقال له مصعب: «إنه أخى دونك». .. (قال): فسألت أمه عن أغلى ما فُدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف ففدته بها.

١٢ - وروى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية

ابن خلف لى صديقاً بمكة؛ فلما كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه على وهو آخذ بيده. ومعى أدرع قد استلبتها فأنا أحملها. فلما رأى قال: «هل لك فى فأنا خير لك من هذه الأدرع التى معك»؟ قلت: «نعم هالله!» فطرح الأدرع من يدى وأخذت بيده وييد ابنه، فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى، وكان هو الذى يعذب بلالا على الإسلام بمكة. فلما رآه قال: «رأس الكفر أمية بن خلف؛ لا نجوت إن نجا»!! قلت: «أنى بلال، أسيرى»! قال: «لا نجوت إن نجا»!! ثم صرخ بأعلى صوته: «يا أنصار الله، رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا»!! فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المُسَكَّة^(١)، فأنا أذب^(٢) عنه. (قال): فأخلف رجل السيف فضرب ابنه فوق، وصلاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط! قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغنى عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منها. فكان عبد الرحمن يقول: «يرحم الله بلالا؛ فجعنى بأدراعى وأسيرى»!

١٣ - وروى غير واحد أن أبا جهل قال يوم بدر: «اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة»! وأقبل

(١) المُسَكَّة: السوار أو الخلخال.

(٢) أذب: أذفع.

على الناس فقال: «يا معشر الناس، لا يهولنكم قتلُ شبيبة
وعتبة والوليد، فإنهم قد عجلوا؛ فواللات والعزى لا نرجع حتى
نقرن^(١)» محمدًا وأصحابه في الجبال! ثم انغمر في المعمة وهو
يقول متمثلاً:

ما تَنْقِمُ الحربُ الشَّموسُ مني
بازلُ عامين حديثُ مني
لمثل هذا ولدتني أمي!

قال معاذ بن عمرو بن الجموح: «سمعت القوم وأبو جهل
في مثل الحرجة^(٢)، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه.
فلما سمعتها جعلته من شأن، فصمدت نحوه؛ فلما أمكنتني حملت
عليه، فضرته ضربة أظنت^(٣) قلمه بنصف ساقه. (قال):
وضربني ابنه عكرمة على عاتق فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من
جنبي؛ وأجهضني^(٤) القتال عنه، فلقد قاتلت عامةً يومي وإني
لأسحبها خلفي. فلما آذنتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها
عليها حتى طرحتها».

(١) نقرن: نربطهم وهم أسارى.

(٢) الحرجة: الشجر الملتف.

(٣) أظنت: قطعتها.

(٤) أجهضني: أعياني.

قال ابن إسحاق: ثم مر بأبي جهل وهو عَقِيرٌ معوَّذٌ ابن عفرَاء، فضربه حتى أُثْبِتَهُ^(١)، ثم تركه وبه رمق؛ فمر بأبي جهل عبد الله بن مسعود، حينما أمر رسول الله ﷺ أن يُلْتَمَسَ في القتلى..

قال عبد الله بن مسعود - فيما رواه الإمام أحمد - : انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر، وقد ضُرِبَتْ رجله وهو يذُبُّ الناس عنه بسيف له، فقلت: «الحمد لله الذي أخزأك يا عدو الله!» قال: «هل هو إلا رجل قتله قومه؟» فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل^(٢) فأصبت يده، فندر^(٣) سيفه فأخذه، فضربته حتى قتله. ثم خرجت حتى أتيت النبي كأنما أقول^(٤) من الأرض، فأخبرته. فقال: «الله الذي لا إله إلا هو!» فرددها ثلاثاً. قلت: «الله الذي لا إله إلا هو» (قال): فخرج يمشي معي حتى قام عليه فقال: «الحمد لله الذي أخزأك يا عدو الله..! هذا كان فرعون هذه الأمة».

إن من يستعرض هذه الصور والمناظر، ثم يتأمل فيما وراءها

(١) أثبتته: أعجزه عن الحركة.

(٢) غير طائل: غير قاطع.

(٣) ندر: سقط.

(٤) أقول: يعني أنه كان من الفرح والنشاط كأنما يحمل عن الأرض حملاً.

من حقائق ومعان، يستطيع أن يدرك بعض أسباب هذا النصر الذى كتبه الله للمؤمنين فى موقعة بدر، ويستطيع أن يتبين منها حال كل من الفريقين، وهدف كل من الفريقين فى هذه الموقعة؛ كما يستطيع أن يدرك الروح الذى كان يسيطر على كل فريق فيدفعه إلى القتال.

قاتل المسلمون وهم على رأى واحد

لقد خرج المسلمون حين خرجوا من المدينة وهم على رأى جميع وتحت قيادة واحدة، قاصدين إلى هدف واحد هو اغتنام العير؛ فلما تبين لهم أن العير أفلتت وأن قريشاً قد خرجت إليهم، تغير الموقف عما كان، وبدا فى صفوفهم شىء من الضعف؛ فنفع فيهم قائدهم رسول الله ﷺ من روحه القوى، فردهم إلى القوة وجمعهم على الصواب، فلم يَشِدُّ عن إجماعهم بعد ذلك رجل واحد.. فلما نزلوا بعيداً عن الماء، واشتدت الحاجة بهم إلى الرى والتطهر، وأخذ الشيطان يدخل إلى بعض النفوس، تداركتهم رحمة الله فغشاهم النعاس وأنزل عليهم الماء، فأذهب عنهم رجس الشيطان، وأعاد إلى نفوسهم الأمن وإلى قلوبهم السكينة، فساروا إلى المعركة وهم يفيضون بالحمية للحق الذى يدافعون عنه. وكان الهدف الذى يرمون إليه حينذاك، أن

يظهر دين الحق على كل دين، وأن تعلق كلمة الله على كل كلمة؛ وفي سبيل هذا الهدف العظيم هانت التضحية، ورخصت النفوس، ونسى المؤمنون كل ما هنالك من زينة الحياة الدنيا، وأصبحوا ولاهم لأحدهم إلا أن يظفر بالشهادة، ويحظى بالموت في سبيل الله.

وقاتل المشركون وقلوبهم شتى

أما المشركون فقد خرجوا مفككين لا تربطهم قيادة واحدة، ولا يجمعهم رأى واحد؛ كان البعض يريد الانتقام والثأر من محمد وصحبه، وكان البعض لا يريد إلا انقضاء العير؛ فلما أن علموا بنجاة العير ظهر التفكك في شكل عملي، فرجع فريق منهم ولم يواصلوا السير مع القوم، وتورط فريق آخر فساروا مع القوم اضطراراً، مداراة لسفاهتهم. فلما تراءت الفئتان ورأى المشركون في وجوه المسلمين ما رأوا من مظاهر العزم القوي، والاستعداد للتضحية، والاستهانة بالموت، ظهر التفكك مرة أخرى في صفوفهم، فأخذ بعضهم يسعى لإرجاع القوم، وبعضهم يسعى ليدفعهم إلى القتال؛ واختلف الفريقان حتى تشاتم زعمائهم، فلم يدخلوا المعركة إلا والنفوس مشحونة بالضعفينة، والقلوب موزعة هنا وهناك. على أنه كان في المعركة فريق آخر

لم يكن يضمّر للنبي ولا للمؤمنين حقًا ولا عداوة، وهم بنو هاشم
ومن شايعهم، فهؤلاء كان ظاهرهم مع المشركين وقلوبهم مع
المؤمنين، ومن أجل هذا أوصى رسول الله ﷺ أصحابه
بالأ يقتلوا من يجدونه منهم.. وإذن فقد دخل المشركون المعركة
وقلوبهم شتى، وأهوازهم متباينة، وقيادتهم فوضى بغير زعيم يرجع
إليه الأمر وتجب له الطاعة؛ في حين دخلها المؤمنون وكلمتهم
واحدة وقيادتهم واحدة، وهدفهم واحد.

المسلمون تحت قيادة حكيمة رحيمة والمشركون تحت قيادة هوجاء مستكبرة

فإذا فرضنا أن أبا جهل كان هو القائد، لأنه هو الذى
غلب رأيه على كل رأى، وهو الذى وجه القوم حتى قادهم إلى
حَيْتِهِمْ^(١) هذا؛ ثم أردنا أن نوازن بين القيادتين، وجدنا المسلمين
تحت قيادة حكيمة رحيمة محببة إلى القلوب، وجدنا المشركين
تحت قيادة هوجاء مستكبرة عنيفة.. فهذا رسول الله، صلى الله
عليه وسلم، يسوى نفسه بأصحابه فى كل شىء، ويشاورهم فى
كثير من الأمر، ويأخذ بما يرى غيره من الصواب، ويردهم إلى
الصواب فى رفق حين يخطئونه، ويتواضع لهم حتى يُقيد من

(١) حَيْتِهِمْ : ملاكهم.

نفسه من شاء أن يستقيد. وهناك أبو جهل يفرض رأيه بالعنف تارة وباللؤم تارة أخرى، ويسلط لسانه على كل من خالفه حتى يضطره إلى مجاراته، ثم هو لا يأخذ بنصح ناصح ولا ينطوى لرأى مشير، ولا يوقر كبيراً، ولا يرحم صغيراً، ولا يفكر في عواقب ما يرى وما يفعل.

قاتل المسلمون على خطة محكمة وقاتل المشركون على غير خطة

فإذا نظرنا إلى التعبئة في كلا الفريقين، وجدنا المسلمين قد عُثِّبوا في صفوف متلاحمة كالبنيان المرصوص، وتحيروا الوضع الملائم فاستدبروا الشمس ولم يستقبلوها، ولم يزحفوا إلى قريش حين زحفت إليهم، بل ظلوا في أماكنهم جثياً على الركب، ينضحون عدوهم بالنبل، كما أمرهم قائدهم؛ حتى إذا غشيتهم المشركون أعملوا فيهم السيوف وهم جمع متحد لا أشتات متناثرة.

وفي مثل هذا الوضع الحرب فقد تغنى القلة ما لا تغنى الكثرة.. وعلى العكس من ذلك كان المشركون.. كثرة غير مجتمعة، وخطة غير موضوعة، وزعامة غير متفكرة، وقيادة غير موحدة، وقلوب غير مؤتلفة؛ والوضع بعد ذلك غير ملائم،

فالشمس تضرب في وجوههم، والماء في حيازة أعدائهم، ثم تبدأ
المعركة مع هذا بدءاً سيئاً، فيموت أربعة من زعمائهم قبل أن
يأخذوا في الزحف.

كان المسلمون قلة معتمدة على ربها، وكان المشركون كثرة مغرورة بقوتها

فإذا نظرنا بعد ذلك إلى الروح الذي كان يسيطر على كلا
الفريقين عند القتال، وجدنا المسلمين يقاتلون وهم مؤمنون بأنهم
إنما يدافعون عن الحق الذي يحبه الله ورسوله، موقنون بأنه
لا يغنى في الدفاع عن الحق إلا من صدق بالحق وآمن،
مصدقون بما وعد الله من نصر الحق وإعلاء كلمته. من أجل
ذلك أبوا أن يستعينوا بأحد من المشركين مهما كان ولاؤه
وغناؤه، ولم تمنعهم قلتهم أن يُقدموا على القتال، واعتمدوا على
الله وحده في إمدادهم بعونه وتأييدهم بتوفيقه. أما المشركون فقد
خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس، يملؤهم الزهو والغرور
بكثرة عددهم وقوة عتادهم، لا يريدون إلا أن يسمع الناس بهم
ويتحدثوا عنهم، موقنين بأن النصر للكثرة، وأن الغلب للقوة،
ومن أجل ذلك قالوا لأبياء بن رخصة حين عرض عليهم
معاونته: «لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن

كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - لما لأحد بالله طاقة». وقد صور الله حالهم تلك بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيْنُ لَهْمِ الشَّيْطَانِ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١). فهذه فئة قليلة مؤمنة تدافع عن الحق وتعتمد في تأييدها على الله وحده، وتلك فئة كافرة مغرورة بكثرتها، يدفعها البغى والعدوان ومراعاة الناس إلى القتال.

خرج المسلمون متفائلين وخرج المشركون متشائمين

وربما كان من أسباب هذه الخلخلة في صفوف المشركين أنهم كانوا قومًا يتطيرون، وقد اجتمعت عليهم في هذه الخرجة أسباب كثيرة تدعو إلى التطير؛ فقد تطيروا من القداح يضربونها فتنهاهم عن الخروج؛ وتطيروا من الرؤى الكثيرة التي رآها غير واحد منهم، وكلها تنذر بالشر وتوحى بالتشاؤم، حتى لقد أشفق أبو لهب من رؤيا عاتكة، فكف عن الخروج وقال: «إنما رؤيا عاتكة أخذ باليد»؛ وتطيروا برأى أبي جهل وكرهوا الخروج عن

(١) سورة الأنفال الآية ٤٨.

مشورته. فقد خرج القوم إذن وهم متشائمون، وأقدموا على القتال وهم كارهون.

وهناك أسباب أخرى يستطيع من تأمل أن يدركها، على أنه مهما تعددت هذه الأسباب ومهما تنوعت، فإن مردها جميعاً إلى أصل واحد، هو تأييد الله وتثبيته للمسلمين، وخذلانه وتثبيطه للمشركين: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّمٌ بِالْأَفْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

(١) سورة الأنفال الآيات ٧ - ١٠.